٧- العشق والتخاطر

رغم ما يعتري الفتى في نومه من هواجس مريرة، وذكريات شديدة الألم، جاءت ذكري حبيبته "رجاء" لتطفئ حرارة الماضي، ووهج الأوجاع في كبده، العجيب أن ذكراها عندما وردت على باله، ارتسمت البسمة تعلو شفتيه وهو نائم، كانت كالبلسم فوق جراحه، تذكر أول رسائلها على صفحته "بالفيس بوك" فقد اتفقا قبل السفرعلى تدشين صفحتىن، الأولي له باسم "ابن النيل"، والثانية لها، تحمل اسم "بنت النيل"، وذلك خشية اختراق الحساب أو سرقته، وحفاظًا على سرية العلاقة الطاهرة.

كانت أنامل يده تتحرك وحدها وهو نائم طريح الفراش، كأنها تنقر فوق لوحة المفاتيح على جهاز "الكمبيوتر"، لتفتح صفحة "الفيس بوك" وارتسمت حالة من النشوة في لب قلبه كما كان يعيشها ماضيا، ونقلت حلاوة الذكرى إلى الوقت الحالي، كان يرفع رأسه، وهو نائم كما لو كان يقرأ كلمات الرسالة من فوق شاشة الكمبيوتر، ما أعذب كلمات المحبين عندما تكون نابعة من القلب! تذكر الرسالة الأولى بكل تفاصيلها وكانت كالتالي وباسم رجاء المستعار:

- بنت النيل: حبيبي الحاضر في قلبي وجوارحي بروحه، والغائب عن عيني بجسده، منذ سفرك من عدة شهور، وأنا أنتظر الرسالة الأولى منك بلا جدوى، كان عهدنا أن ترسل أنت الرسالة الأولى عندما تستقر لك الأمور، ولكن شوقي نحو معرفة أخبارك، وذوبان روحي فيك، وقلقي عليك، كل ذلك جعلني أكسر هذا الاتفاق، فلم أعد قادرة على غياب أخبارك أكثر من ذلك، ليتني أملك الكون، حتى أهبه لك، مع نفسي الملهوفة عليك، فمازلت أعيش في حبك.

قلبي يرى أنك أنت الحياة، وأتمنى أن أهجرالأرض إليك، كي أسكن بين أحلامك البيضاء، لأعيش فوق عرش مملكة الحب المخضب بالحنان، حبيبي أخبرك بأني مازلت أعيش بين عينيك، وأرجوك أن تمنحني رمشين من رموشك أجدف بهما في بحار العشق العميقة، حتى لا أفنى فيك حتى التلاشي.

أرجوك أن ترد، فقد أضناني الشوق نحوك، حتى أصابني الهزال، يكاد أن يقتلني في اليوم ألف مرة، خوفا عليك من أهوال الصحراء، ورعبًا من غدر البحر، إلا أن قلبي يشعر بأنفاسك فوق وجه الأرض، تارة تكون باردة، وتارة ملتهبة وممزوجة بالموت، وتارة مغروسة في خاصرة النساء، أعلم أنك تسبح في مجتمع التحرر الكبير، بيد أن غيرتي عليك لا قيمة لها أمام نجاتك من كل مكروه، أريد أن أسمع صوتك، حتى تعود الروح التي طارت تبحث عنك في كل مكان، أريدها أن تعود بك بين ضلوعي، كي أنام فوق بساط الحب الفسيح.

وفي نفس اللحظة التي يتذكر فيها "غريب" حبيبته وهو نائم، كانت"رجاء" في منزلها تسترق النظر نحو غرفته لعلها تجد ما يطمئنها عليه، ثم تعود بالنظرنحو عقارب الساعة الكبيرة المعلقة بغرفتها، والتي تشير إلي الرابعة والنصف صباحًا، كانت تتذكر وهي مستيقظة كل ما مر بينها وبين "غريب" منذ سنوات، وتنتظر الصباح بفارغ الصبر حتى تذهب إليه، وتفكرفيه في ذات اللحظة التي كان يتذكرها، وهو نائم، كانت تستعيد معه الرسائل التي كتبت بينهما في الماضي بالتخاطر، كأن قلباهما يتناجيان عبر الفضاء، فيخترقان كل الحواجز، فعالم المشاعر فضفاض لا تحده فواصل، ولا تعوق أبراجه أسقف، ولا جدران، فمن القلب إلى القلب رسول.

ما حمل "رجاء"على الرسالة السابقة في الماضي هو شدة القلق، فقد تحولت إلى هيكل عظمي، ودارت بها الأسرة على الأطباء، فلم يجدوا للعلة سببًا ظاهريًا، وعجزوا عن علاج الداء الحقيقي التي لم تفصح عنه لأحد، فلم تفلح أدوية فتح الشهية على حملها على التهام الطعام، ولم تنجح أدوية المقويات في العودة بالنضارة إلى بشرتها، كادت أمها "سعاد" أن تجن، فقد تبدل الحال إلى الأسوأ، حتى سقطت الفتاة على الفراش كأنها سوف تستقبل الموت في التو واللحظة،

وتوقفت عن الشراب، والطعام، والـدواء، فحضر الطبيب كي يقوم بتركيب المحاليل في عروقها، حتى لا تموت، فوجد العروق قد هربت من جسدها، وبصعوبة قام بتوصيلها، وظل بجوارها حتى نامت، وفردت الأم فوقها غطاءً خفيفًا، وانصرفت تتمتم بالدعاء، راجية لها الشفاء.

كانت الفتاة وقتها قاب قوسين أو أدنى من الموت قلقًا على حبيبها، ورغم إعيائها الشديد، نهضت مع السحر قرب الخامسة صباحًا، واتجهت نحو جهاز "الكمبيوتر"، وحررت رسالتها الأولى بصعوبة بالغة، لعلها تصله، فقد شعرت بأنه قريب منها، وأن رائحته تملأ أرجاء الغرفة، وكانت المفاجأة أن "غريب" هو الآخر في اللحظة ذاتها كان يسعى ليعد رسالته الأولى، بيد أن رسالة الفتاة سبقت رسالته، ورد عليها بالسلام، ثم بدأ يخط الرد، فنهضت،والنضارة، والبهجة تعودان لوجهها، فتبسمت للحياة، وتوجهت نحو نافذة الغرفة تفتحها، لتفسح للهواء العليل بالدخول، فمسحت نسمات الفجر أوجاعها، فتساقط الهم من روحها وهي تقرأ رد "غريب"على صفحات "الفيس بوك" في صفحته التي تحمل اسم ابن النيل:

- ابن النيل:حبيبتي الغالية، أعتذر عن التأخر في الكتابة إليكِ، فقد مررت بأهوال كثيرة، كلها تصغر أمام عيني من أجلك، وسوف أقصها عليك لاحقًا، حتى لا أفسد فرحتى بلقائك للمرة الأولى منذ السفر.

حبيبتي اشتقت إليكِ،كما يشتاق الزرع إلى الماء، وفرحت برسالتك كما يفرح الربيع بأكاليل الورود فوق أيامه، تجذني كل ذكرى مرت بيننا، فأرتشف منها رحيق الحب الممزوج بأغصان الذكريات، فحلاوة اللحظات التي عشتها معك، تساوي أعمار أقوام لم تع نبل تلك العاطفة، فمازلت حتى الآن غارقًا في عينيكِ، ولا أود السباحة في غيرهما، تمنيت أن نكون معا، ندوس بأقدامنا فوق الأشواك فتتحول إلى ورود يانعة، أريجها يفوح بالعطور فوق الزمان، أشعر بأن الحياة معك سوف تكون كلها هدوء،وسكينة، ورضا.

حبيبتي في غيابك عني أشعر بمحنة شديدة، ورغمًا عني أجد الأشواق

تهزقلبي ليل نهار، فأنا المشتاق الجالس تحت أوتار الهوى ألتمس الحنان من ثغرك العذب البعيد، أتوه كما الفراش الحائر، يتحسس الضوء من نور وجهك عبرآلاف الأميال، فأرى وجهك أمام عيني يشبه وجه الملاك القادم من عالم الطهر البديع، فأصعد إليكِ فوق جناح الأمل، واعلمي أن قلبي يحلق نحوك في فضاء العاشقين، فأجدني أغوص بمشاعري في أعماق الغرام، حبيبتي أقسم أني أتلحف بك من برد الغربة القارص، فاستشعر روحك تغطيني بدفء الحنان، أراك تسكنين بين قلبي وشرياني، وتخترقين كل ذرة بجسدي.

فقط حبيبتي أسألك السماح، إذا ضللت يومًا، وأخطأت رغمًا عني، وإن قصرت في إتمام عهد الوفاء نحوك، لن أكررها، ولو غلبني الضعف ذات مرة، ستعيدني قوة الحب نحوك، كي أكمل الطريق نحو قلبك البريء.

كانت الرسالة بمثابة العلاج الذي طال انتظاره، وبرأت السقيمة بالهوى من ألمها، بعد أن اطمأنت أنه حي يرزق، وبخير.

كان سبب تأخر غريب في الكتابة إليها، هو خجله من نفسه، جرّاء علاقته بمدام "ماري"، فلم يجرؤعلى محادثتها، فقد ظل لمدة شهرين على هذا الحال، كلما فتح الحساب على صفحته بـ "الفيس بوك" ليكتب لها، شعر أن يده مشلولة، وعقله متيبس، وذلك بسبب سقوطه في حبائل امرأة أخرى، لم يتركه وخز الضمير طوال هذه الفترة، كانت سياط الندم تهوي فوق عقله، فهو يحبها حبًا كبيرًا، وخيانة عهد الهوى هي كل عار المحبين.

ولذا بات يفكر في الاعتراف لها بخطيئته لعل باله يرتاح، كان يخشى إذا اعترف أن يفقدها للأبد، ظل هكذا منقسماً على نفسه لا يكلمها بعد خطابه الأول لمدة شهر، ولم يفتح حسابه على "الفيس بوك" خشية البوح.

عدم التواصل بالرسائل أقلق "رجاء"، وظنت أنه في مأزق جديد، فربما حدث له مكروه، فقد بعثت له ثلاث رسائل لم يرد عليها، إلى أن دفعه الشوق لأخبارها ففتح حسابه على"الفيس بوك" فوجد رسائلها وبها من القلق ما يزعجه، وبخاصة الرسالة الثالثة التي كانت كالتالي:

بنت النيل: ماذا حل بك يا حبيبي، هذه ثالث رسالة لم تردعليها منذ أن كتبت إلىّ في الشهر الماضي، أنا أعيش بين الظنون مقتولة بالخوف عليك، لا يقترب النوم من جفني، وأشعر بأن وسادتي كأنما غُزلت من الشوك، فوق قلبي غمة ثقيلة كأن الجبال العاتية أطبقت فوق روحي، أرجوك أن ترد علىّ، إن كنت بخير، فرغمًا عني فقدت الشهية نحوالحياة من فرط القلق، وشحب لوني حتى أن أسرتي قد ظنت أني مصابة بمرض عضال، فطافت بي على الأطباء مرة أخرى دون جدوى، وأنا أستحي البوح بأنك أنت الطبيب الذي بيده علاج السقام التي ألمت بروحي، أرجوك أن ترحم حبي، وأن تطفئ نار القلق عليك، بك.

لم يكن "غريب"يملك أمام هذه الرسالة سوى الرد عليها، متوسمًا في الصدق أن ينجيه، أفرغ حمله الثقيل على رسائل "الماسنجر" للخلاص من وخز الضمير، فكتب لها هذه الرسالة مساء السبت في أجازته الأسبوعية:

ابن النيل: حبيبتي لم يمنعني عنك سوى محنة ألمت بي، وأخشى البوح بها فتنصرفي عني، ظنًا بأنني قد خنت عهد الهوى، وما أنا بالخائن، وإن زلت قدمي، لقد مرت علي فترة كنت فيها مسلوب الإرادة، فبعد أن أفلت بعمري من الموت مرتين، جمعني القدر بامرأة إيطالية اسمها "ماري" قضيت معها فترة، وتزوجتها للحصول على الجنسية فقط، على أن يكون الزواج صوريًا، ومع الوقت أغواني الهوى بها، وأقمت معها علاقة كاملة، وقد أفقت من هفوتي محطمًا، وخاصة بعدما ظننت أنها حامل، بسبب ظهور بعد أعراض الحمل عليها، ولكنها أخبرتي أنها لا تنجب، فحمدت الله على ذلك، لأني لا أرغب في أولاد إلّا منك.

حبيبتي رغم أنه لا يوجد سبب يدفعني أن أعري به نفسي أمامك، وكان من الممكن عدم البوح بتلك الخطيئة، لأني تركت "ماري" وسافرت إلى هولندا، على أن تقوم هي بإجراءات الطلاق لاحقًا كما اتفقنا، حبيبتي كان من المستحيل أن تعلمي بما حدث إلّا مني، ولكن شبح الخيانة كان يحاصرني، فأشعر بضآلتي؛ لأني قد حنثت بعهد الحب عندما عرفت غيرك.

بسبب جرمي أصابني الوهن بسبب صراع دار بين ضميرى ونفسي، فأجدني تارة تنهمر الدموع مني فلا تغسل خطيئتي، وتارة تكاد رأسي أن تنقسم من كثرة الألم، وفي العمل كادت يدي أن تبتر وأنا أقوم بتشغيل ماكينة الإنتاج بمصنع الجبن ثلاث مرات وذلك بالوردية المسائية، وأكثر من مرة، وأنا أعبر الطريق مشتتا لا أدري بنفسي إلّا أمام شاحنة تكاد أن تسحقني، لولا أن السائق يمسك الفرامل في اللحظة الأخيرة، ولولا عناية الله لكنت في عداد الأموات بسب حدة الندم، ولم أجد خلاصًا إلّا في طلب السماح منك، على أن أعاهدك ألّا أمس امرأة غيرك مادمت حيًا، أرجوك أن تتقبلي اعتذراي، وأن يشملني منك العفو والسماح.

قرأت "رجاء" الرسالة، وقلبها يحترق بنيران الغيرة، والغضب يملأ جوارحها، فلم تكن تتوقع أن يحدث ذلك منه، ولم تستطع الرد عليه في حينها، أغلقت جهاز "الكمبيوتر" ، وتحركت تجر قدميها بصعوبة نحو "السرير" فسقطت عليه، تمددت غارقة في دموعها، تسبح في ألم فظيع، حتى أمتلأ جوفها بأوجاع الحسرة، فنهضت تسعل حتى وصلت "الحمام" تتقيء كل ما بجوفها، وعادت تنتفض، تتصبب عرقًا، فوجدت أمها بجوارها تمسك يدها، وأوصلتها حتى غرفتها، وأجلستها على السرير، وناولتها دورقًا من الماء فشربته عن آخره، ثم تمددت تغط في نوم عميق.

وبعد أن كتب "غريب"الرسالة ظل ينتظر الرد منها فلم ترد، وعرف أنها قرأتها، وقع قلبه بين قدميه، فهذا يعني أنها جد غاضبة، وربما تقطع علاقتها به، كان كالمجنون يتابع صفحتها لحظة بلحظة، فيجد علامة تبويب الرسائل مغلقة، تارة يلسعه الندم على صراحته الزائدة، وتارة يقتنع أن ما قام به صحيح، فهو يرى أن الحب الحقيقي يجب أن يبنى على الصدق، ورغم برودة الجو كان يتصبب عرقًا، كان يشعر أنه ملاحق بعار الخيانة، ويخشى أن تهجره "رجاء"إلى الأبد.

شعر بعطش شديد، فرفع زجاجة الماء نحو فمه، ولم ينزلها إلّا فارغة، كانت ضربات قلبه عالية، ويداه ترتعشان مخافة الفراق، وظل طوال الليل في أرق

إلى أن غلبه النعاس، ومع حلول الفجر، ورغم خوفه من رد حبيبته، نام نومًا ثقيلًا، لأنه أزاح هرمًا من الهموم بالبوح، كان كمن يرىد بتر موطن الداء من جرحه، حتى تتعافي روحه من فيروسات الخيانة.

وفي اليوم التالي استيقظ عند الظهيرة، فهجم على جهاز الكمبيوتر لعله يجد ما يشفيه، فوجد إشارة حمراء على خانة الرسائل، ضغط على المؤشر ففتحها:

بنت النيل: قرأت رسالتك بالأمس، فوقع ما فيها على قلبي كوقع السكين على رقبة الذبيحة، فنزفت من مشاعري آلامًا سالت فوق روحي، حتى أصبحت أصرخ في نفسي بصوت مكتوم زلزل كل جوارحي، كانت الآهات تخرج من بين أنفاسي حارة مشتعلة كالنار التي لا تنطفئ مهما سُكب فوقها من ماء، وجربت لوعة حواء عندما تُذبح مشاعرها فوق فراش غريمتها، وكانت سكينك جد باردة، لاتقتل فتريح الضحية من عذاب الذبح، فلم يكن لقاؤك بـ "ماري" ليلة عابرة، كان زواجًا كاملاً، كنت مع كل سطر في رسالتك، أتخيلك معها، شعرت كأنك تستل خنجرا من غمده، لتغرسه في قلبي كلما ارتميت في أحضانها، تخيلت قبلاتك لها تسقط على قلبي كأنها لدغات العقارب تزرع السم الزعاف في صدري، ربما لم تجرب حسرة امرأة قام حبيبها بنزع النعيم من روحها، ليغرسه في أحشاء امرأة أخرى، لن أطيل عليك كثيرًا، فشجاعتك على الاعتراف رغم مرارتها أكدت لي أنك نادم، وتبتغي الخلاص من ذنبك نحوي، سوف أسامحك على أن تعاهدني على الوفاء، وألّا تكون لغيرى لحظة واحدة بعد اليوم.

ابن النيل: حبيبتي عفوك عني منحني أملًا جديدًا في الحياة، وأعاهدك على الوفاء ما دمت حيًا، فالموت عندي أهون من خيانة عهد الهوى.

وفي وقت واحد ظل الحبيبان يتذكران الماضي بكل تفاصيله، بالتخاطر،والرسائل الرقيقة، والحديث عبر مايك "الماسنجر"، فقد كانت تنقل له كل ما يدور بالقرية من أخبار وأحداث، وظل الأمر هكذا لمدة سويعات، حتى اقترب الضحا، فخرجت من الوقت الماضي إلى الحاضر قرب التاسعة صباحًا،

وهبطت من منزلها تقصد منزله، لتطمئن عليه، فقد ذهب والدها إلى عمله، وأمها مشغولة بأعمال المنزل، دقت الجرس، وصعدت دون أن تنظر من يرد عليه، وصلت إلى غرفته، وطرقت الباب طرقتين، فإذاب"غريب" ينهض من ثباته، يسند ظهره على شباك السرير، يهتف باسمها:

- غريب: رجاء؟ تفضلي.

- رجاء: لقد قتلني القلق عليك، ومنذ عودتك بالأمس لم أنم حتى هذه اللحظة، وكنت أتذكر كل رسائلك.

- غريب: وأنا كنت معك أعيشها لحظة بلحظة.

- رجاء: عليك أن تنتبه وأنت تقود السيارة، لا تهتم بما ينشر على"الفيس بوك" ولا تعطي للجهلاء وزنًا، أنا لن أتحمل أن يصيبك مكروه..

- غريب: دعكِ من كل هذا، سوف أرسل أمي لخطبتك، وإتمام الزواج في أسرع وقت، لقد تأخرت في ذلك عامًا ونصف منذ عودتي من "هولندا" حتى تنجح مشروعاتي، بيد أني اكتشفتُ أني بحاجة إليكِ بجواري، فأنتِ مشروعي الكبير، وكنت مخطئًا.

- رجاء:أنا أنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر.

جلستْ بجواره يتبادلان معًا أطراف الحديث، فكلام العشاق كالنغم، وأريج الحب يعبق المكان بسحب الحنان، كانت الأم "حميدة" ترقبهما بسعادة بالغة، فقد كانت "رجاء" تزورها باستمرار في فترة سفره، وتوطدت الصداقة بينهما، وعلمت بميل الفتاة نحو ولدها، وتأكدت من حبهما لبعضهما البعض؛ منذ عودته، وكانت تبارك هذا التقارب، وتحث ولدها على سرعة الزواج منها، واليوم عندما سمعته يخبر الفتاة بذلك، طار قلبها من الفرح، وأخذت تعد نفسها للذهاب لطلب يدها من أمها، فقد جرت العادة في مثل هذه الأمور أن تطرح الفكرة على أم العروس، لتنقل الخبر بدورها للأب، حتى يتفق الرجال

على تفاصيل الزواج حال الموافقة على العروس.

عادت"رجاء" لمنزلها، وبعدها بدقائق لحقت بها الأم "حميدة" فاستقبلتها الأم "سعاد" بترحاب شديد، وأيقنت ماذا تريد، فقد علمت من ابنتها في السابق أنها تحب "غريب" ولكنها خلال هذا اللقاء تظاهرت بعدم العلم، وانتظرت ما سوف تبوح به الخاطبة، وجلست ترحب بها تارة، وتكرم وفادتها تارة أخرى، إلى أن جهرت "حميدة" بطلبها، فرحبت الأم، وطلبت منها الانتظار حتى تعرض الأمر على رب الأسرة.